الدور الدولي الجديد لروسيا

الاستاذ المساعد الدكتور
حميد حمد السعدون(*)

المقدمة

روسيا وريثة الاتحاد السوفيتي، هما توصيفان لعنوان واحد، تتلخص حقيقته، بكونه يعني دولة كبرى، لها من الحضور على المسرح الدولي، فعالية ونشاط متميز، بحيث لايمكن لأي متعاط مع احداث العالم السياسية، ان يتجاهلها أو يلغي دورها، لذلك فأن غاب الدور والحضور الروسي عن مسرح الاحداث، مدة فهو قطعاً لن يكون غياباً، دائميا. وروسيا بحكم المساحة والسكان والثروات والموقع الجغرافي، وعوامل اخرى، لايمكن لها، ان تغيب أو تحتجب عن الدور الذي يليق ويتكافأ معها، لاسابقاً ولا مستقبلاً.

وهذا البحث، محاولة، للاطلالة على الدور الروسي الجديد على مسرح السياسة الدولية، بعد مدة انكفاء قاربت العقد من السنين، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١، لأسباب ومسببات كثيرة.

أولاً: روسيا واستعادة الأرث السوفيتي

من الناحية القانونية والسياسية، ورثت روسيا مكانة الاتحاد السوفيتي، من غير ان تملك اسباب القوة السوفيتية، كاملة، رغم انها تمسك ببعض هذه القوة و خاصة على الصعيد الاستراتيجي العسكري. ورغم انها عانت ما عانت في المدة التي تلت عام ١٩٩١، لكنها لم تتنازل عن النهج الاستراتيجي للدولة الروسية ذات الدور المهم في السياسة الدولية، اياً كان الحاكم او المسؤول الاول، لادراكها، أن أي تنازل او انكفاء، معناه تهديد لكيان الدولة الروسية، وتعرضها لمشاكل لاحصر لها. وعلى الرغم من ان الدور الروسي كان مرتبكاً وضبابياً، بفعل اعادة بناء الاتحاد الروسي ومواجهة المشكلات المعقدة الموروثة عن الاتحاد السوفيتي السابق، الا ان تسلم "فلاديمير بوتين" لدفة الحكم، كان ايذاناً بأعادة بناء للفعالية الروسية على المستويين الداخلي والدولي.

كانت المهمة الرئيسة لبوتين استعادة مكانة روسيا كدولة كبرى ، من خلال الثبات على مواقف مستقلة ، دون رفض الماضي السوفيتي او التكفير عنه، لأنه جزء من الذاكرة الروسية الوطنية وعامل مؤثر في تكوين المجتمع الروسي الحديث، ولهذا السبب عادت بعض الرموز القديمة للدولة السوفيتية بالظهور، ومنها العلم الاحمر كرمز للجيش الروسي والنجمة السوفيتية المذهبة والنشيد الوطني القديم بعد تعديل بعض كلماته مع الاحتفاظ باللحن القديم نفسه الذي كان يرمز دوماً الى عظمة روسيا وقدرتها على الصمود

(*) رئيس قسم الدراسات الامريكية–مركز الدراسات الدولية–جامعة بغداد

والمواجهة[١]. وقد لاقت عودة هذه الرموز الترحيب من الغالبية العظمى في روسيا التي شعرت مجدداً بعزتها القومية. ترافق مع ذلك وقف التدهور الاقتصادي، مع زيادة معدلات، النمو بعد القضاء على التضخم والبطالة الواسعة، ومحاربة الجريمة المنظمة واستعادة هيبة الدولة[٢]. وقد شكل تسلم "ديمتري ميدفيديف" موقع الرئاسة الروسية، خلفاً للرئيس– بوتين–اشارة الى استمرارية للنهج البوتيني، الهادف لدور روسي فاعل على الساحة الدولية، مع التأكيد، على أن–بوتين–رتب المسرح لخليفته ورئيس وزرائه السابق، بعد ان عالج وصفىٰ مشكلات كثيرة، كانت تعترض طريق روسيا . مثل الدين العام واعادة اطلاق مشاريع التنمية وبناء القدرات الروسية العسكرية المتجددة، ومحاربة وتصفية عصابات المافيا الروسية التي سرقت الكثير من المال العام، كما انه اعاد الاستقرار النفسي للمجتمع الروسي الذي عصفت به مشكلات متعددة، هذا غير اعادته الثروات الوطنية تحت سيطرة الدولة واشرافها[٣].

لقد اعاد–بوتين–مظاهر الصلابة لروسيا، واعاد فرض احترامها كقوة كبرى في العالم نتيجة لتحسن وضعها الاقتصادي واستقرار وضعها السياسي، كما عادت الهيبة الى قواتها العسكرية التي كانت قد وصلت الى ادنى المستويات بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، بحيث عجزت الدولة عن دفع رواتب جنودها[٤]. ترافق مع ذلك، انه رتب المسرح السياسي لخليفته استمراراً للنهج الذي اختطه، دون خرق للدستور الروسي، مثلما كانت تتخوف الاوساط الغربية ، مما اعطى الانطباع عن تمسك الجميع بالثوابت الوطنية التي يمثل الدستور قمتها القانونية، وهذا ما اسكت الابواق المعادية لروسيا، التي وصفت– بوتين–بالقيصر او الدكتاتور الجديد، وهو ما اشاع جواً من الارتياح والطمأنينة في المجتمع الروسي الذي سأم المتغيرات العنيفة والسريعة منذ تفكك امبراطوريته عام ١٩٩١.

ولقد كانت جهود–بوتين–متواصلة من اجل اعادة هيبة الدولة، التي تراجعت ايام الرئيس "بوريس يلتسين" حينما وضع رجال العصابات والطفيليين ممن احاطوا به واستفادوا منه، وسرقوا المال العام، تحت طائلة القانون. واذا كان يحسب للرئيس–بوتين–من فضيلة لحماية أمن روسيا، فأنه استطاع، رغم أوضاع روسيا القلقة، من افشال المسعى الاطلسي لتوسيع حلف الناتو شرقاً، من خلال التطلع لضم "اوكرانيا" و"جيورجيا" كأعضاء فاعلين في الحلف، مؤكدا بذلك قدرة روسيا المتعاظمة بوجه هذه المخططات، وعدم تراجعها في تصعيد الموقف، في حالة كونه يشكل تهديداً لأمن روسيا وسلامتها[٥].

---

[1]- (1) http : // en – Wikipedia . org / Wiki / politics – of – Russia – 8.4.2008 ((Politics of Russia))

[٢] – وليم نصار–روسيا والنظام الدولي–المجلة العربية للعلوم السياسية–العدد (٢٠) خريف ٢٠٠٨–بيروت– ص: ٣٤ ,

[٣]– عدنان السيد حسين – روسيا واستعادة الارث السوفيتي – صحيفة الخليج الاماراتية / دبي – في ٢٠٠٧/٨/١٩ .

[4]- http : // en – Wikipedia. Org Wiki / Politics- of – Russia – 7.11.2008 ((Politics of Russia))

[٥]– فيتالي نومكين – العلاقات الروسية مع اوربا والولايات المتحدة الامريكية : انعكاسات على الامن العالمي– مركز الامارات للدراسات والبحوث – ابوظبي ٢٠٠٦ – ص : ٨٣ .

ان روسيا، تمكنت في مرحلة–بوتين–من اعادة تجديد نفسها بشكل هاديء وبنسخة اكثر اعتلالاً من التجربة السوفيتية، وهذا ما أهلها، لأن تضع بصمتها على الكثير من القضايا العالمية التي غابت عنها، أيام الفوضى، منذ ان جاء–غورباتشوف–بدعاوية للمكاشفة والمصارحة واعادة البناء، وبالطريقة اللامسؤولة التي تمت فيها. وهذا التجديد الروسي لهياكل الدولة وادائها، اعطى انطباعاً عن مخاطر عودة الحرب الباردة. وتقديرنا ان العالم ومنذ ان انفردت الولايات المتحدة الامريكية في تقرير شؤونه بعد عام ١٩٩١، فقد باتت اوضاعه اكثر قلقاً ودموية عما سبقها. والواقع يثبت ان شعارات الديمقراطية وحقوق الانسان ومزايا العولمة، التي رفعها الغرب، لم تجن منها الشعوب سوى المزيد من الحروب والهيمنة وانتهاكات حقوق الانسان والقانون الدولي[٦]. وربما في ضوء هذا الواقع، قد يأتي اليوم الذي تصبح فيه، ضرورة اعادة التوازن الدولي للمسرح السياسي، امراً مؤكداً واساسياً.

ان انطلاق القيادة الروسية، لهدف زيادة تعظيم قوة روسيا ونفوذها، واستعادة بعض قوة الاتحاد السوفيتي السابق، يأتي متوافقاً ورغبتها في استبعاد العودة لسياسات الحرب الباردة، لمعرفتها بأنها حرب مكلفة مادياً وسياسياً وأمنياً، في حين، انها لم تزل مستمرة في سعيها لمكافحة اثارها السلبية داخل مجتمعاتها، هذا غير مالديها من شبكة المصالح المتعددة، مع اطراف دولية كثيرة، وهذا بلاشك يتقاطع ومنهجية سياسات الحرب الباردة وتداعياتها المختلفة[٧].

ان سياسات–فلاديمير بوتين–ومن ثم–ديمتري ميدفيديف–ترمي الى تعزيز قوة روسيا في توازنات القوى الدولية، مع محاربتهما لأية محاولة في التدخل في الشؤون الداخلية لها، مع سعيهما لتطوير العلاقات مع الصين والجوار الاسيوي، وصولاً الى الهند، التي تتمتع بعلاقات تاريخية مع موسكو، تعود لايام الاتحاد السوفيتي[٨]. لكن سياستيهما، تكون حساسة وذات بعد عنيف، ازاء المحاولات الرامية الى ضم مناطق النفوذ الروسية لحلف شمال الاطلسي "الناتو" كجورجيا واوكرانيا. ولعل مواجهتها مع جورجيا في آب / اغسطس ٢٠٠٨ ، المثال البارز لذلك ، بعد ان استجابت–جورجيا–لاغراءات الغرب في تحدي الروس والمساس بموضوع الأمن القومي لهم، من خلال اجتياحها لأراضي اقليم "اوستينيا الجنوبية" ذو الاغلبية الروسية والمتمع بالحكم الذاتي داخل جمهورية جيورجيا. ولأن الروس، ادركوا منذ البداية، ان الذي يواجههم في الساحة، هو الدور والحضور الامريكي، وليس القوة الجيورجية ، حتى وان تصدرت الواجهة، كان الرد

---

[٦]– **فاضل الربيعي – مابعد الاستشراق: الغزو الامريكي للعراق وعودة الكولونيات البيضاء–مركز دراسات الوحدة العربية– بيروت ٢٠٠٧– ص: ١٧٤.**

[7]- **Edward Lucas – The New cold War : The Future of Russia and the Threat to the west – Palgvave Macmillan – New York 2008 – 146 .**

[٨]– **لمى مضر الامارة – الاستراتيجية الروسية بعد الحرب الباردة وانعكاساتها على المنطقة العربية – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت ٢٠٠٨ – ص : ١٨٣ .**

الروسي فعالاً وقاسياً ودموياً، بحيث كشف كل عيوب النظام الجورجي، وأوضح عجز الغرب في مساعدة جيورجيا، حينما تكون المواجهة ضد روسيا. لذلك كان العقاب الذي تلقته وكذلك من دفعها، قاسياً ومؤذياً، لأنه مس الجانب الحساس في البناء الروسي، والمتمثل بالأمن القومي[٩].

ان التسابق الروسي–الامريكي، قد يستند الى نقاط استراتيجية في النطاق الكوكبي الاوسع، من المحيط المتجمد الشمالي حتى ثروات النفط والغاز الطبيعي، الى الشرق الاوسط ومداخله، مروراً باسيا وماتحمله من ارث متشابك . كما ان السياسات الاوربية، المعبر عنها بالاتحاد الاوربي، قد تتعثر امام متغيرات دولية متسارعة مادام الاتحاد الاوربي، لم يتوصل بعد، الى سياسة خارجية موحدة. كل ذلك يؤثر ويتأثر بالنظام الدولي الحالي، الموصوف بالاحادية القطبية "Unipolar" وهو النظام الذي اتاح للولايات المتحدة الامريكية امر التفوق والسيطرة على العالم منذ عقد التسعينيات في القرن الماضي.

ونتيجة لتراكم الاخطاء المتكررة في السياسة الخارجية الامريكية، وبخاصة في تمددها الامبراطوري، مع مارافق ذلك من ممارسات عدوانية واستعلاء ضد الجميع، بحيث بات استخدام القوة العسكرية المفرطة، وكأنه أحد ملامح التجربة الامريكية في الهيمنة[١٠]. هذه الاشكالية المطبوعة بالعنف والغرور، ولدت استياءً واسعاً عند جميع القوى العالمية، مما استوجب تهيئة الاجواء لولادة نظام التعددية القطبية ، لكونه النظام المقبول من الجميع، بعد ان فشلت الولايات المتحدة الامريكية، من استغلال مدة هيمنتها العالمية، في اشاعة جو من الامن والسلام. بل ان العكس، قد حصل، فما حدث من حروب وكوارث وازمات، في اثناء هيمنة الولايات المتحدة، فاق بعدده ومدى تأثيره، ماحصل في مرحلة القطبية الثنائية مثلاً .

غرور العظمة، الذي تلبس القيادات الامريكية المختلفة والتي دفعها لاستخدام القوة العسكرية كأداة لتسوية اوضاع سياسية حساسة، وبما يتقاطع ومفاهيم الديمقراطية وحقوق الانسان وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، دفعها الى الانحدار والتراجع، لأن استخدام القوة لتسوية المسائل السياسية قد ثبت فشله عبر معظم مراحل حل النزاعات الدولية. وربما كان توصيف الامبراطور الفرنسي "نابليون بونابرت" عن ذلك بالقول "اني اعجب اشد العجب عن عجز القوة في الاتيان بنصر حاسم" هو الدليل الواضح في هذا المجال. اذ ان استخدام القوة لايؤدي الى سياسة ناجعة، ومن ثم، فأن الاهواء الشخصية واحياناً المواقف التي تفتقر الى الحكمة، هي التي تدفع القائمين على ادارة الازمات الدولية للجوء الى القوة دون الوسائل السلمية لحل تلك الازمات. لذلك فأن سعي الجميع لتعددية قطبية واسعة، بدلاً من استعادة اجواء الحرب الباردة، أمرٌ بأت يحظى بالتأييد من الجميع، خاصة وان دوافع التعددية القطبية موجودة عند جميع الدول الفاعلة والمؤثرة في المسرح السياسي الدولي، والماسكة بزمام القوة ومفاتيحها المتعددة الاشكال، ازاء عدها، ان نظام الاحادية القطبية، يشكل استثناء في مسار العلاقات الدولية والتاريخ الانساني. لذلك فأن روسيا تتطلع ان تكون بنية

[9]- Johannes F. Linn – War in Georgia – End of an Era, Beginning a New Cold War – Brookings . Institution – Washington D. C. 2008 P: 94.

[10] - Andrew J. Bacevich – The limit of power : The End of American Exceptionalism – Metropolitan Books – New York 2008 – P : 87 .

مؤسسية جديدة في المسرح السياسي الدولي ، تكون موسكو في وسطها[١١]، خاصة بعد دعاوى الرئيس الامريكي–باراك أوباما–باشراك روسيا في حل المشكلات الدولية الاساسية واعتبار ان الشراكة الدولية، وليس الاحادية أو الانفراد المهيمن، هي السبيل الامثل لمواجهة الكثير من المسائل التي تواجه العالم اليوم.

ثانيا: الدور الروسي لتحجيم الاحادية القطبية

شكل سقوط جدار برلين عام ١٩٨٩، ايذانا ببدء مرحلة جديدة في العلاقات الدولية ، ابرز ملامحها ، غياب مرحلة القطبية الثنائية "Bipolar system" في صناعة القرار الدولي، والتي تحكمت بأحوال العالم منذ عام ١٩٤٥، استخدم فيها طرفا المعادلة ، كل اساليب وادواته الصراع التي تمكنهما من ادامة هيمنتهما على المسرح الدولي خصوصاً، ان ذلك المسرح، شهد العديد من التوترات التي كادت تؤدي الى مواجهات مدمرة بين القطبين[١٢]. هذه المرحلة، هيأت الظروف لمرحلة اخرى، كان ابرز ملامحها، فشل وانهيار التجارب الاشتراكية في منظومة المعسكر الشرقي، مع تفكك واندثار حلف وارشو احد ابرز ملامح الحرب الباردة واهم من ذلك كله، تشظي الامبراطورية السوفيتية وتناثر جمهورياتها في اتجاهات شتى[١٣].

في تلك المرحلة كان المنافس الانكلوساكسوني، على الضفة الغربية من الكرة الارضية، يرقب تطورات مايجري في الشرق عن كثب، ويتهيأ لاقتناص اقرب فرصة للتفرد بعرش الهيمنة على صناعة القرار على الكوكب الارضي. ثم قدمت له حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١، فرصة لاتتكرر بطغيان قوته ونفوذه على الجميع، مما اعطاه الارجحية المطلقة في ادارة الشؤون الدولية. وهذا مابان واضحاً حتى في القرارات التي يتخذها مجلس الأمن الدولي فقد كانت تتم تلك القرارات بوتائر سهلة وبسرعة غير معهودة، وبالطريقة التي صممتها الادارة الامريكية[١٤]. وما كان يحدث، ضيع هيبة ونفوذ كثير من الدول الكبرى، بحيث لم يتجرأ احد منها ان يهدد او يستخدم حق النقض "الفيتو" بالضد من كل القرارات التي صدرت تحديداً بعد ٢ آب/ اغسطس ١٩٩٠، وطوال اكثر من عقد من السنين، مما اضفى غروراً متزايداً على الاداء الامريكي وفكره وسلوكه في الساحة الدولية.

بدأ المنافس الامريكي، منتشياً بسقوط القطبية الثنائية، وما كان يحدث في روسيا من فوضى عارمة، بحيث شاء ان يقطع كل الشكوك حول تفرده بالهيمنة على ادارة الشؤون السياسية والاقتصادية

---

[١١]– جورج فريدمان – مبدأ ميدفيديف والاستراتيجية الامريكية – مجلة المستقبل العربي – العدد (٣٥٦) – اكتوبر ٢٠٠٨ – بيروت – ص : ١٢٤ .

[١٢]– زبينغيو بريجنسكي – رقعة الشطرنج الكبرى – ط١ – ترجمة امل الشرقي – الاهلية للنشر والتوزيع – عمان / الاردن ١٩٩٩ – ص : ١٨ .

[١٣]– فيتالي نومكين – مصدر سابق – ص : ٩٦ .

[١٤]– فاضل الربيعي ، مصدر سابق ، ص : ١٩٤ .

والعسكرية والثقافية في المسرح الدولي، حين بدأ شكلاً من اشكال استعراض القوة، مرسلاً اساطيله البحرية والجوية الى ابعد المواقع واخطرها، وهذا ماشاهدناه في العراق وافغانستان والصومال ويوغسلافيا ورواندا. دون ان يخفف من حدة اساليب سياساته في مسارح دولية اخرى متأزمة مثل، كوريا ومنطقة القفقاس ودول آسيا الوسطى ولبنان وايران. بل انه خطى خطوة تحمل من المخاطر الشيء الكثير، حينما بدأ بالتعدي على مناطق نفوذ الاتحاد السوفيتي السابقة، مفككاً المواقع الاستراتيجية للوجود الروسي، من خلال اغراء تلك الدول بالانضمام لحلف الناتو، تمهيداً لانضمامها للاتحاد الاوربي[١٥].

وقد نجحت هذه الطريقة مع دول المنظومة الاشتراكية السابقة "بولندا، تشكيا، سلوفاكيا، المجر، رومانيا، بلغاريا " حينما انضمت لحلف الناتو، وباتت في اقل الاحوال سوءاً، مناطق وثوب بالحلف نحو روسيا، في اوقات قادمة اذا احتاجها الناتو لتنفيذ سياساته وبرامج عمله.

وبعد احداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، فقد حصل تحول عميق في شكل السياسات الامريكية وتنفيذها ازاء الجميع بمن فيهم اصدقاؤها وخاصة باتجاه استعادة النزوع العدواني الامريكي، مع الافراط في استعمال العنف والقوة، بحيث بات قول الرئيس الامريكي "بوش الأبن" والمتلخص "من لم يكن معنا فهو ضدنا "سياسة امريكية واضحة، معتبرة ان معركتها الاساسية في هذا القرن، هي الحرب الدائمة على الارهاب[١٦].

لكن ومن اجل تخفيف الشكل العدواني، واستحداث شكل تلطيف لتلك السياسات، فقد مزجت الولايات المتحدة الامريكية مطاليبها الرئيسة الخاصة بمحاربة الارهاب، بدعواتها الملحة، لنشر الديمقراطية مع الدعوة لتخفيف اجراءات الدولة ازاء مواطنيها بما يرتب لابعاد اشكال الهوية القومية عن التناول. على الجانب الآخر، وتأكيداً لعدوانيتها فأن الولايات المتحدة الامريكية، لم تنفك في تنشيط النعرات الطائفية والاثنية، وتبني لافتات حملت معاني مقيته غابت عن الذاكرة الجمعية لحقب طويلة، مثل: صراع الحضارات ونهاية التاريخ والشرق الاوسط الكبير الذي مالبث ان جرى تحديثه تحت مسمى الشرق الاوسط الجديد والحرب الاستباقية والصدمة والرعب، وغيرها مع ما يرافق ذلك من اشكال العولمة المتوحشة، وافعال الشركات المتعدية الجنسيات والعابرة للقارات والمستهدفة العبث والنهب لثروات الآخرين. كل ذلك كان يحدث، مع ما رافقه من لغة اعلامية هجومية ضد من تسميهم الولايات المتحدة بأنظمة الاستبداد، لأنها تستهدف اعادة تشكيل خارطة الاوضاع بما يتلائم ويتوافق وسياساتها الكونية. وهذا بالتأكيد لن يكون محل رضا من قبل كثيرين، وفي المقدمة منهم روسيا[١٧].

وقد افصحت تلك الدعاوي عن معانيها بشكل واضح، من خلال احتلال افغانستان والعراق، وشطبهما من خارطة الدول المستقلة، وتدمير مؤسساتهما الرسمية والثقافية وبنيتهما التحتية. وقد توسعت اشكال سياسة التفتيت، فشملت تمزيق اوصال السودان والصومال، وتحريض الصهاينة على مواصلة عدوانهم

---

[١٥]- **فيتالي تومكن ، مصدر سابق ، ص : ١١٤ .**

[١٦]- **فاضل الربيعي ، مصدر سابق ، ص : ١٩٦ .**

[١٧]- **حميد حمد السعدون – فوضوية النظام العالمي الجديد – دار الطليعة العربية – عمان ٢٠٠١ – ص : ٦١ .**

الدائم على الشعب الفلسطيني، من خلال السعي لفك عرى التواصل بين قطاع غزة والضفة الغربية، والتي كان ابرز عنوان لها، العدوان الاخير الذي تعرضت له غزة من قبل الصهاينة اواخر عام ٢٠٠٨ وبرضى وسماح امريكي.

وطوال اكثر من عقدين، فقد انكفأت روسيا عن ممارسة دورها واستحقاقها الدولي، راضية بالنتائج المتحققة على الارض، تاركة الامريكان لممارسة الافراط في القوة وفي أي موقع كان لهم تماس مباشر معه، مما عرضهم للاستنزاف في بقاع عديدة من العالم[١٨]. هذا المتغير العميق، دفع روسيا التي عاشت حالة من الذهول والفوضى مع ما رافق ذلك من انهيار اقتصادي واجتماعي واخلاقي، وبروز مافيات تعرض كل شيء للبيع، بما في ذلك البشر والتاريخ والا نجازات العلمية، خلال العقد الاخير من القرن الماضي . لكن شعبها سرعان ما استعاد وعيه، بعد ان عرف حجم الكارثة وعمقها، ومن حسن حظه، ان يترافق في تلك المرحلة مجيء الرئيس "فلاديمير بوتين" في الموقع الرئاسي، فعمل بصمت واخلاص، من خلال اعتماده على الملاك الامني والعسكري والاستخباري في ادارته لمؤسسات الدولة التنفيذية والقضائية والتشريعية التي وقعت فيها في اثناء حقبتي الرئيسين "غورباتشوف ويلتسين".

وفي هذا الجانب، وتأكيداً على الدور العالمي لروسيا، فأن "بوتين" ومن جاء بعده يسعون وباصرار عنيد من اجل العمل لبناء وخلق نظام عالمي جديد قادر على استيعاب روسيا الجديدة والمتجددة، كما ان السياسة الروسية الجديدة لاتقبل العمل كوسيط لتسهيل ضخ موارد وثروات جمهوريات القوقاز وآسيا الوسطى لصالح أية قوة كبرى، لانها تعد هذه الجمهوريات بمثابة مناطق نفوذ لها، ترتبط ارتباطا وثيقاً بأمنها القومي ومصالحها الاقتصادية والاستراتيجية[١٩].

ان الدب الروسي، لم يطل غفوته، خاصة بعد مجيء–بوتين– لموقع الرئاسة، الذي بدى زعيماً نشطاً يعيد للتاريخ الروسي حضوره على الساحة الدولية، وهذا مابان في العديد من القضايا الرئيسة والملتهبة، مثل العدوان الامريكي على العراق واستمرار التعاون مع طهران في استكمال برنامجها النووي بمفاعل بوشهر، او في تحديث الماكنة الصناعية والعسكرية الروسية ، من خلال انتاج احدث مقاتلة في العالم او في تصنيع صاروخ عابر للقارات بقوة دفع ذاتي وقادر على حمل رؤوس نووية،... والكثير من القضايا الاخرى.

ان عودة روسيا لمسرح الصراع الدولي، بات حاجة عالمية، ازاء الاندفاع والغرور والانفلات الذي طبع السلوك الامريكي، منذ هيمنتهم على المسرح السياسي الدولي. وهذه العودة، مع مايرافقها من نمو لقوة الاتحاد الاوربي،

---

[١٨]– نيكولاي زلوين – الخليج في سياقات السياسة الخارجية الروسية – مركز الامارات للدراسات والبحوث – ابو ظبي ٢٠٠٦ – ص : ١٣٧

[١٩]– ايمن طلال يوسف، روسيا البوتينية بن الاوتوقراطية الداخلية والاولويات الجيوبولتكية الخارجية، مجلة المستقبل العربي، العدد (٣٥٨) ديسمبر ٢٠٠٨ ، بيروت ، ص : ٨٧ .

مع الصعود المتنامي للقوة الصينية، ستكون جميعها المسالك الرئيسة لانجاز عالم متعدد الاقطاب، تتنافس فيه قوى متعددة، بعد ان وصلت الولايات المتحدة الامريكية الى نهاية مرحلة التفرد والهيمنة على النظام الدولي كقطب وحيد، مما يهيء الاجواء للجميع، لانجاز السلام العالمي، بعيداً من اجواء القوة والانفلات، والتي كانت ابرز ملامح عصر الهيمنة والتفرد منذ عقد التسعينيات في القرن الماضي[٢٠].

ثالثا: روسيا وعالم متعدد الاقطاب

يجدر بنا الانتباه الى ان قراءة التاريخ، تؤكد ان انبثاق اي نظام دولي جديد ، يرتبط في الغالب، بحوادث مفصلية، تحمل في رحمها، ملامحه، والقوى الصاعدة فيه، وتهيء للانتقال بشكل حاسم من وضع عالمي الى آخر. هكذا كان التاريخ الانساني، دائما وابداً، يتمثل في سقوط امبراطوريات وصعود اخرى، وهي مشاهد اعتاد النظام الدولي التعامل معها في الانتقالات الحادة في مجرى التاريخ الانساني.

كان السقوط المروع للاتحاد السوفيتي، وتربع الدور الامريكي وتسلطه وهيمنته على المسرح السياسي الدولي، منذ بداية عقد التسعينيات في القرن الماضي، استثناءً في التاريخ. وبرغم كون السقوط، كان سلمياً، لكنه مدو بأكثر مما تفعله الحروب، بسبب التفرد الذي تمكن منه الامريكان في ادارة شؤون وازمات المسرح الدولي، من خلال تنصيب انفسهم قطباً عالمياً أوحداً بلا أية منافسة من احد. وما حصل، كان علامة على عصر جديد في العلاقات الدولية، لم يألفه مجتمع الدول منذ ظهور الدولة القومية، بعد معاهدة ويستفاليا عام ١٦٤٨، مما اضفى مظهراً متفرداً للقوة المهيمنة في المسرح الدولي[٢١].

النقطة الاخرى، التي ينبغي ملاحظتها ونحن بصدد مناقشة سيناريو انتهاء عصر الاحادية القطبية، هي ان الطابع الايدلوجي واختلاف المذاهب الاقتصادية، قد حكم الصراع بين العملاقين، في اثناء مرحلة الحرب الباردة. هذا الطابع الايدلوجي، وانشطار العالم على أسس العقائد السياسية، لن يكون له مكان في عالم متعدد الاقطاب، لأن كل القوى الصاعدة اقتصادياً والمهيأة للتنافس مع الولايات المتحدة، في النظام العالمي الجديد، ملتزمة باقتصاد السوق المفتوح وبالديمقراطية وحقوق الانسان رغم بعض التفاوت في ماهية هذه المفاهيم الدولية وكيفية تطبيقها من نظام الى آخر[٢٢]. وهذا التطابق والانسجام بين اطراف النظام الدولي، كان قد تم التعبير عنها بشكل واضح، خلال معركة– عاصفة الصحراء–عام ١٩٩١، وهي النقطة المفصلية في الاعلان عن الاحادية القطبية، لكن هزيمة المشروع الامريكي في العراق، بعد أن جرى احتلاله من قبل الولايات المتحدة الامريكية عام ٢٠٠٣ كانت هي الاخرى نقطة مفصلية، في الاعلان عن انتهاء التفرد الامريكي على صناعة القرار الاممي، وقيام عالم متعدد الاقطاب[٢٣]. فهزيمة المشروع الامركي على الارض العراقية، باتت واضحة لاتحتاج لدلائل اضافية، بعد ان استهلكت الولايات المتحدة ، قوتها وهيبتها

---

[20] - Andrew J. Bacevich – OP . Cit – P : 126

[٢١]– د. حميد حمد السعدون – مصدر سابق – ص : ٩١ .

[٢٢]– برهان غليون – عصر المواجهات الكبرى – مكتبة مدبولي – ط٣ – القاهرة ١٩٩٣ – ص : ١٥٣ .

[23] - Edward Lucas – op . Cit – P : 189

ونفوذها، في مسرح، لم تستطع ان تطيقه، ويملك من التأثير الشيء الكثير في مايحيط به من عوالم ، فضلاً عن فشلها في تقديم الانموذج الذي يستقطب من حوله، قوىً اضافية ، تكون قادرة بفعلها الجماعي، ان تشيع جواً من الامن والرفاهية والسلام. وماحصل على المسرح العراقي، شكّل فضيحة اخلاقية كبرى للولايات المتحدة، فضلاً عن انتكاساتها السياسية والاقتصادية والامنية، وهي مشاهد لايمكن ان تتوافق، ومستوى قوة ونفوذ وهيبة الدولة الاعظم في العالم، وهي امور، سرعت مع بعضها في قصر مدة التفرد الامريكي العالمي[٢٤].

ويمكننا ان نرصد من خلال احتمالية نمو القوى المهيأة لمنافسة القطب الواحد، وخلق عالم متعدد الاقطاب، القوى الآتية:

- الاتحاد الاوربي، من خلال التعاون المتكامل بين قوتيه الاساسيتين، وهما– المانيا وفرنسا–مع مايسندها من قوى اخرى متطلعة للخروج من عالم الهيمنة والتفرد، وفي المقدمة من ذلك بلجيكا، دون ان نسقط من الحساب النفوذ الاقتصادي لعملة "اليورو" والنمو الاقتصادي الجيد للقوى الفاعلة في هذا الاتحاد، والتي لم تتأثر ازاء الازمة المالية الاخيرة، بالقدر الذي حصل في مجمل قطاعات الاقتصاد الامريكي، والتي افقدته الكثير من فعاليته ونموه المتسارع في عموم الساحة العالمية[٢٥].
- اما روسيا، وهذا ما اشرنا اليه في الصفحات السابقة، فهي اكثر القوى تطلعاً لانهاء مرحلة الاحادية القطبية، خاصة وان هذا التطلع قد توازى معه، جملة من النشاطات والاجراءات التي اعادت لروسيا دورها ومكانتها العالمية السابقة، وحجم من تأثير التدخلات الغربية التي كانت مؤثرة في وضع روسيا الضعيف ايام مرحلة الرئيسين–غورباتشوف ويلتسين–فروسيا تعد نفسها حضارة قائمة بذاتها، فهي ليست جزءاً ممتداً للحضارة الاوربية، كما انها ليست حضارة اسيوية، بل هي حضارة فريدة ، فيها خليط من التنوع الثقافي، الذي مكنها من انشاء مرجعية حضارية روسية خاصة، غنية بكل مفردات الحياة[٢٦].
- وفي اقصى الشرق، تسجل الصين قفزات نوعية في ادائها الاقتصادي، وتطور من ادائها العسكري، وتنشط بقوة في غزو الفضاء، وتتحدى الادارة الامريكية، في عدد من المحاور. وتنبأ الكثير من المهتمين بالشأن الاقتصادي العالمي، بأن القوة الاقتصادية الصينية ستتكافأ مع مثيلتها الامريكية، في حدود عام ٢٠٢٥، مما يعني بلا شك ان هذه القوة في طريقها لأن تكون قطباً دولياً قوياً، وهذا بلا شك، أمر يزاحم الولايات المتحدة وينافسها في الساحات السياسية العالمية[٢٧].

---

[٢٤]– روبرت سميث – جدوى القوة : فن الحرب في العالم المعاصر – ترجمة وتحقيق مازن جندلي – الدار العربية للعلوم – بيروت ٢٠٠٨ – ص : ٢١٦ .

[٢٥]– نيكولاي زلوين – مصدر سابق – ص : ١٢٧ .

[٢٦]– وليم نصار – مصدر سابق – ص : ٣٩ .

[27]- Naomi Klein –The shock Doctrine: The Rise of Disaster Capitalism- London 2008 – P: 275 .

من جهة اخرى، تندفع الهند بقوة، نحو بناء قوتها الاقتصادية والعسكرية. واذا كان السلاح النووي في الماضي، هو البوصلة التي يحدد من خلالها، موقع الدولة في سياق معادلة الصراع الدولي، فأن الهند، قد دخلت هذا النادي منذ عام ١٩٧٤، كما انها استغلت احداث ١١ سبتمبر لتطور من امكانياتها واهتماماتها، بما يكفل لها دوراً متميزاً في احداث الساحة العالمية، بعد ان انشغلت الولايات المتحدة الامريكية وباكستان بالتبعات والملاحق التي جاءت بعد احداث سبتمبر ٢٠٠١ مما اعطى الهند، المجال الواسع للتطور والبناء، مأخوذة في ذلك بما قدمته منافستها الاخطر– الصين–من انموذج متميز في شكل الانجاز المحقق[٢٨]. ازاء ذلك كانت الاتفاقيات الثنائية التي عقدتها الولايات المتحدة معها في مختلف الانشطة، بما فيها النووية، قد اعطتها مكانة الدولة الاكثر رعاية في المدة الاخيرة مما يدلل على المكانة التي تحتلها الهند في المسرح السياسي الدولي، الامر الذي يرشحها ان تكون احد الاقطاب الرئيسة في عالم متعدد الاقطاب.

اذاً، فهناك قوى صاعدة ، بأمكانها ان تكون مراكز استقطاب دولية تنافس وتزاحم الولايات المتحدة في مجال النفوذ العالمي. واذا تحقق وشكلت هذه القوى مع بعضها، تحالفاً، فستكون امام كتلة دولية واحدة تملك الكثير من اسباب القوة . وحصول ذلك معناه شكل جديد من اشكال العلاقات الدولية، التي تكون قواعدها الاساسية مبنية على تكافؤ وتعادل القوة بين المتنفذين في الصراع الدولي. وحصول ذلك امر جيد لعموم المجتمع العالمي، لأنه لايتيح لقوة منفردة ان تتحكم بالاوضاع وبطريقة غير مسؤولة وعبثية ، مثلما فعلتها الولايات المتحدة الامريكية بعد انفرادها بالمسرح السياسي الدولي، منذ عقد التسعينيات من القرن الماضي.

لكن مايعيق قيام هذا التكتل الدولي، جملة من الاعتبارات التي تدفعنا ان نضع علامات استفهام كبيرة، حول قيامه . فأولاً ، كيف سيتجاوز الروس خلافاتهم مع الصين، وهي خلافات موغلة بالقدم، والعمل على تقوية كيانهم المنفرد من جهة ، وجهدهما الجماعي من جهة اخرى ؟ وكيف يمكن ان يجرى ترتيب عقد تحالف صيني – هندي ، في حين ان مابين الاثنين من عقد وازمات، مازالت تفعل فعلها؟ وهل سينفك التحالف الصيني– الباكستاني لصالح قيام قطب دولي مؤثر؟ واين موقع اليابان من كل مايحدث، وهي تستند الى ارث تاريخي مأزوم مع مايحيط بها وتقنية متقدمة؟ وما دور واهمية القوى الساندة لتقوية هذه التكتلات؟ تلك اسئلة، تبدو الاجابة عنها، مبكرة جداً، وحسبنا ان نستعير ماكان يردده الساسة الانكليز في حالات كهذه بالقول: "في السياسة ليست هناك صداقات دائمة او عداوات دائمة، بل هناك مصالح مشتركة" بمعنى آخر، ان السياسة ليست ساكنة، بل انها تتحرك وفقا للمصالح التي تحققها. بل ان الضرورات تبيح المحظورات، فقد يتحول خصوم الامس الى حلفاء واصدقاء اليوم، مادام ذلك، هو السبيل لمواجهة التفرد الامريكي، وهذا مايجعلنا امام رمال متحركة، واحتمالات تحولات كبرى في الخارطة السياسية الدولية. وهذا هو حالها في كل وقت.

---

[٢٨] – ديتمر روذر موند – الهند نهضة عملاق اسيوي – ترجمة مرون سعد الدين – ط١ – الدار العربية للعلوم – بيروت ٢٠٠٨ – ص : ٧٥ ومابعدها .

لذلك، فأننا امام احتمال بروز عالم متعدد الاقطاب، يشمل على الاقل القوى المؤثرة الآتية:

- الولايات المتحدة الامريكية
- الاتحاد الاوربي
- روسيا
- الكتلة الاسيوية (الصين، الهند) مع مايسندها من قوى اخرى، كماليزيا.

اما اليابان، فقد تتطلع ان تكيف وضعها مع العصر الجديد، بما فيه دورها العسكري، وبما يجعلها احد العناصر الفاعلة في نشاط وفعالية المحور الذي تلتحق به. وتقديرنا، انها ومع كل التماثل والتطابق الحاصل مع الولايات المتحدة الامريكية، لكنها ستفضل الالتحاق بالمحور الاسيوي–رغم مابينها وبين قواه من مشاكل عالقة– لاسباب تاريخية وتجارية واعتبارية، وهذا مايمنح هذا المحور، قوة دفع اضافية، يحتاجها في اشكالياته القادمة والتي ستقع احداث وقائعها المتقاطعة مع المحور الامريكي.

هذا التغيير السياسي الهائل في هيكل القوة العالمية، سيتبعه تغيير حتمي في هيكلية منظمة التجارة العالمية، والتي ستكون ابرز ملامحه، وقوف الولايات المتحدة الامريكية، بالضد من شعارها الاثير "حرية الاسواق" لأن لتحقيقه معنى واحداً، هو انفلات التنين الاسيوي–الصين– وهيمنته على تجارة العالم، بحكم رخص المادة وجودتها، قياسا بمثيلاتها المصنوعة في الولايات المتحدة، مما يعني تراجع الدور التجاري والاقتصادي الامريكي المؤثر في السوق العالمية. وربما كان التعبير عن ذلك هو زيادة الرسوم على السلع الصينية الداخلة للاسواق الامريكية، مما يعني تعرض الشركات الصينية لخسائر كبيرة. فضلاً عن ذلك، فأن موضوع نزع التسلح سيكون اهم محاور الصراع في العالم متعدد الاقطاب، وهذا الامر يشكل اهتماما امريكيا استثنائيا ، بحكم مساحة السيطرة والنفوذ الذي تملكه شركات التسليح الامريكية في صناعة القرار السياسي الامريكي ، مما يعني تأزمات دائمية ، اقرب وصف يقال عنها ، بأنها مرحلة سلام ساخن.

أمر حسن، ان تنتهي الحقبة الراهنة التي ينفرد فيها طرف واحد في قيادة العالم، وان نشهد عالم متعدد الاقطاب، يجري التنافس فيه، سياسيا واقتصاديا وعلميا وثقافيا، بما يوفر لشعوب العالم الثالث–وفي المقدمة منه شعبنا العربي–فرصة مناسبة ومعقولة للنمو والتطور والبناء، وبما يمكنه من معانقة العصر الذي بات فيه العالم، كما يقول الكثيرون بأنه "قرية كونية". وامر رائع، ان تنتهي كل اشكال التوترات والعنف والقسوة، والتي طبعت آثارها واضحة على مسيرة الكثير من الشعوب، وبما يجعل من العالم، واحة أمن وسلام، وللجميع.

الخاتمة

مرت روسيا القيصرية ومن ثم الاتحاد السوفيتي، واخيراً روسيا الاتحادية، بمتغيرات ذات طبيعة استثنائية، ينبغي على المهتمين بالشؤون الدولية اخذها بعين الاعتبار. اذ انتقلت روسيا القيصرية، بعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧، من دولة ذات قدرات عادية، يمكن ان تتماهى او تتماثل مع سواها من القوى الاوربية الاخرى، الى دولة اتحادية عظمى–الاتحاد السوفيتي–كانت اولى النماذج السياسية الكونية التي تمكنت من خلق التوازن الدولي، ثنائي القطبية، وكان من المتوقع، بعد انهيار وتفكك الاتحاد السوفيتي، ان يتراجع

الاتحاد الروسي، وريث ماسبقه، ويتحول الى قوة دولية متواضعة، نتيجة لفقدانه الكثير من ممكنات الاتحاد السابق، وهذا هو شأن الكثير من الدول التي ورثت امبراطوريات منهارة، كالامبراطورية اليونانية والرومانية والعثمانية، او سواهما. لكن الانتقالات العملاقة التي تحققت بعد اقل من عقد، وتحديداً في عهد الرئيسين، بوتين وميدفيديف، اثبتت امكانية ان يتبوء الاتحاد الروسي الجديد مكاناً متميزاً في التفاعلات الدولية.

ان تنامي الدور الروسي، وسعيه الحثيث لعالم متعدد الاقطاب، يستند الى مقومات قوة حقيقية ، ويمكن تلمس ذلك، في المجالات الاقتصادية والسياسية والامنية. اذ شهد الا قتصاد الروسي، ومنذ عام ٢٠٠٠، طفرات اقتصادية هائلة، كذلك فأن تبني روسيا لسياسة خارجية ناضجة وحكيمة، انعكس بشكل واضح على حل مشكلاتها الاقليمية ببراعة واضحة، اذ كان التعامل العقلاني مع الازمة الشيشانية، ومن ثم الاستخدام الفاعل للمزج بين الدبلوماسية والقوة، في التعامل مع الازمة الجورجية، قد استقطب اعجاب الكثير من دول العالم، ولفت الانظار الى القدرة غير المسبوقة لروسيا الاتحادية، التي كانت على ادراك تام، بأن عالم التفرد الدولي لن يكون حصرياً ونهائياً، ومن ثم فهي دائمة السعي لتشكيل عالم متعدد الاقطاب، ربما سيكون تعبيراً واضحاً، عن اعادة الوهج السوفيتي. ونجد ان ملامح هذا العالم، كانت بادية في دعوة الرئيس الامريكي–أوباما–في اشراك الاطراف الدولية المهمة، في حل المعضلات الدولية، في اشارة الى انتهاء مرحلة الهيمنة الاحادية، ومن ثم، يمكن القول، ان العقود القادمة، ستسجل ملامح عالم جديد، تتعدد فيه القطبية الدولية، ولا يبقى فيه مكاناً للدولة القابضة على زمام العالم بشكل منفرد.